

مادية

قال لي صديقي ، وهو يحاورني في صدد هذه المادية الجافة التي انغمس فيها الناس انغماساً بغياً ، وهذه الحياة النفعية التي اندفعوا فيها اندفاعاً ممقوتاً :

— أنا وأنت وكل البشر يعرفون أن المال عصب مهم في نشوء الحياة وورق المجتمعات ولكنهم عرفوا ذلك بعد أن وضعوا النقود وسيلة من وسائل القدرة على الإصلاح والتعمير ، وسيلة فقط ، ولكن انظر إلى الناس وقد أعمى الله بصائرهم فانقلبت في أذهانهم مفاهيم الأشياء فأصبحوا يفسرونها تفسيراً مغلوطاً يخفى عنهم الحقائق المرة ، ومن تلك الحقائق أنهم أضحوا ولاهم لهم إلا الجمع المحض فهم لا يصنعون شيئاً ، في هذا العمر القصير الذي وهبه الله لهم لكي يعملوا على إصلاح أنفسهم وسعادة مجتمعاتهم ، إلا أن يكسبوا درهماً على درهم ، استولت عليهم فكرة الجمع استيلاء غريباً فهم لا يفكرون لم هذا الجمع ؟ وما هي قيمة العمر الذي يذهب في الاكتناز وحده ؟ ولقد انقلبت في عقولهم الأوضاع فبينما كان المفروض أن يفكروا في الغاية تراهم الآن يفكرون في الوسيلة أي في جمع المال وحسب . . لقد نسوا لماذا يكتزون الدرهم . .

قلت — هناك ظاهرة معروفة ولكنها غريبة ، وهي أن حب المال طغى على الناس فتشربت به نفوسهم وأفكارهم كما يتشرب الأسفنج بالماء فأنت لا تكاد تبحث مع أحدهم في قضية أو أمر يكون أبعد ما يكون عن البيع والشراء حتى تجده يدفعك دفعاً إلى الكلام عن التجارة وما باع وما قد يشتري أما إذا كنت ممن حباهم الله ذلاقة اللسان واستطعت أن ترغمه على البحث معك في موضوعك الأدبي أو العلمي أو أي موضوع عام ، فستراه يناقشك في هذه المسائل بلغة المعاملات التجارية وبأسلوب الصكوك ، وإذا احتاج في مناقشته تلك إلى أمثلة وعبر ، فما أكثر ما في سوق الدرهم من حكم ومواعظ يلقيها عليك إلقاء... ولست بحاجة إلى أن أعيد عليك شيئاً من تلك الأمثلة فأنت تسمعها في النهار حين تسعى في الأسواق وتسمعها — وهذه ثلاثة الأثافي كما يقال — في الليل حين تتسامر مع الناس في أندية ومجالسهم الخاصة فهم لا يتركون حديث المال حتى في الليل

حيث يستجم الجسم ويستريح البال . وأنت يا صديقي من أرباب التجارة أقستطيع أن تفعل كما يفعلون ؟ أنت قادر على أن تعيش نهارك كله وليلك كله لا تتحدث ولا تفكر ولا تقرأ — إن كانوا يقرءون — إلا عن أسباب المال وما يتصل به ؟ . .

قال : لست بمستطيع ولن أحاول . إن هذا إسراف . في فهم الحياة وإسراف في كبت الشعور وموت النفوس . إن هذه الحياة التي يحياها من ينطبق عليهم حديثك لا قيمة لها على الإطلاق . . إن العالم كله ينبذ اليهود ويعيبهم لأنهم أوقفوا حياتهم على المال فغلوا غلواً فاحشاً في جمعه ، وتهالكوا عليه فماتت معنيتهم وروحيتهم ، واندثرت ضمائرهم ، وفنت أخلاقهم فاحتقرتهم الإنسانية جمعاء ، وطردتهم من حضارات العالم ومدنياته ، ولا تحسبن أن اليهود قد استطاعوا أن يحتلوا مركزاً في المجتمع البشري فلا يزال شيلوك هو شيلوك حقيراً منبوذاً . وما محاولة إيجاد أرض لليهود في فلسطين العريضة إلا لكي يتخلص العالم الغربي نهائياً من هذا العنصر القذر الذي ابتلت به الإنسانية فيبعدونه عنهم وعن حضارتهم ومدنياتهم .

قلت : ولأنه لمن المدهش أن يردد بعض من فتنوا بالدينار القول المأثور اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، ثم يضرب صفحاً عن شطر القول الآخر ، فهم يمسكون الدرهم بيد من حديد ناسين أو متناسين كل ما قيل من آيات بينات وحكم ومواعظ عما يجب عليهم أدائه في سبيل الفقراء والمرضى والعجزة والجياع ، ولا يفكرون في العمل الصالح في سبيل الخير والبر والمعروف .

وهناك أيها الصديق ظاهرة أشد غرابة من تلك وهي أنك لو تعمقت في البحث والتفكير لرأيت عجباً ، ستري أن مجتمعتنا منقسم في ناحية التفكير المادي إلى قسمين متطرفين إن جاز هذا التعبير ، فهناك فئة من الناس ترى جمع المال غاية الغايات ومنتهى الآمال وهذه الفئة انتبهنا منها أما الثانية فهي أشد غلواً وأكثر سوءاً وأفتك ميكروباً ، ولندعها بالفئة المتية ، لأنها تدعوا إلى الموت فهذه الفئة تفهم الحياة على أنها اتكال صرف ، وخمول وكسل تطل على الناس الكادحين من بروج الاعتزال والدعة ، لتعدد مثالهم وسوأتهم ، وترى القضاء والقدر بكل سبة وقدرح (البقية على صفحة ١٩)